موقف الإمام الحسن

رأينا موقف أنصار الإمام الحسن من صلحه مع معاوية وما لاقاه منهم من عنت وكيف أن أكثرهم لقبوه (بمذل المؤمنين) .

وسيرى القارئ فى الكتاب الرابع الخاص بالإمام الحسين فى الجزء الخاص « برحلة الإمام الحسين رضى الله عنه فى الميزان » المقارنة بين موقف الإمام الحسن والإمام الحسين ، وأرى فى هذا المقام أن أبادر بالمقارنة بين ظروف كل من الإمامين .

فقد رأى[1] كثير من الناس أن الشمم الهاشمى الذى اعتاد أن يكون دائماً فى الشواهق . كان أليق بموقف الحسين عليه السلام منه بموقف الحسن رضى الله عنه .

وهذه هى النظرة البدائية التى تفقد العمق ولا تستوعب الدقة .

فما كان الحسن فى سائر مواقفه إلا الهاشمى الشامخ المجد الذى واكب فى مجادته مثل أبيه وأخيه معاً . فإذا هم جميعاً أمثولة المصلحين المبدئيين فى التاريخ . ولكل بعد ذلك ، جهاده ورسالته ومواقفه التى يستمليها من صميم ظروفه القائمة بين يديه . وكلها الصور البكر فى الجهاد . وفى المجد . وفى الانتصار للحق المهتضم المنصوب .

---

(١) صلح الحسن = للشيخ راضى آل ياسين .

وكان احتساء الموت ، قتلا ، فى ظرف الحسين ، والاحتفاظ بالحياة صلحاً ، فى ظرف الحسن ، بما مهدا به ، عن طريق هاتين الوسيلتين لضمان حياة المبدأ ، وللبرهنة على إدانة الخصوم هو الحل المنطقى الذى لا معدى عنه لمشاكل كل من الظرفين ، وهو الوسيلة الفضلى إلى الله تعالى ، وإن لم يكن الوسيلة إلى الدنيا ، وهو الظفر الحقيقى المتدرج مع التاريخ ، وإن كان فيه الحرمان حالا وخسارة السلطان ظاهراً .

وكلتا التضحيتين : تضحية الحسين بالنفس ، وتضحية الحسن بالسلطان هما قصارى ما يسمو إليه الزعماء المبدئيون فى مواقفهم الإنسانية المجاهدة .

وكانت عوامل الزمن التى صاحبت كلا من الحسن والحسين فى زعامته هى التى خلقت لكل منهما ظرفاً من أصدقائه وظرفاً من أعدائه ، لا يشبه ظرف أخيه منهما ، فكان من طبيعة اختلاف الظرفين اختلاف شكل الجهادين واختلاف النهايتين أخيراً .

ولنتكلم أولا : عن ظروفهما من أنصارهما ومثلث خيانة الأصدقاء الكوفيين بالنسبة إلى الحسين عليه السلام خطوته الموفقة فى سبيل التمهيد لنجاحه المطرد فى التاريخ ، ولكنها كانت بالنسبة إلى أخيه الحسن عليه السلام ، يوم مسكن والمدائن ، عقبته الكؤود التى شلّت ميدانه عن تطبيق عملية الجهاد ، ذلك لأن حوادث نقض بيعة الحسين كانت قد سبقت تعبئته للحرب ، فجاء جيشه الصغير يوم وقف به للقتال منخولا من كل شائبة تضيره كجيش إمام له أهدافه المثلى .

أما الجيش الذى أخذ مواقعه من صفوف الحسن ، ثم فر ثلثاه ونفرت به الدسائس المعادية ، فإذا هورهن الفوضى والانتقاض والثورة ، فذلك هو الجيش الذى خسر به الحسن كل أمل من نجاح هذه الحرب .

ومن هنا ظهر أن هؤلاء الأصدقاء الذين بايعوا الحسن وصحبوه إلى معسكراته كمجاهدين ، ثم نكثوا بيعتهم وفروا إلى عدوهم أو ثاروا بإمامهم كانوا شراً من أولئك الذين نكثوا بيعة الحسين قبل أن يواجهوه ، وهكذا مهد الحسين لحربه ، بعد أن نخلت حوادث الخيانة أنصاره ، جيشاً من أروع جيوش التاريخ إخلاصاً فى غايته وتفانياً فى طاعته وإن قل عدداً .

أما الحسن فلم يعد بإمكانه أن يستبقى حتى من شيعته المخلصين أنصاراً يطمئن إلى جمعهم وتوجيه حركاتهم ، لأن الفوضى التى انتشرت عدواها فى جنوده كانت قد أفقدت الموقف قابلية الاستمرار على العمل ، وأى فرق أعظم من هذا الفرق بين ظرفيهما من أنصارهما ؟

وأما ظروفهما من أعدائهما هو الفرق بين معاوية ويزيد ، والفرق بينهما هو ما طفح به التاريخ من قصة البلادة السافرة فى الابن والدهاء فى الأب ، ومن وراء ذلك الخصومة التاريخية التى أكل عليها الدهر وشرب بين بنى هاشم وبنى أمية ، ولم تكن الأموية يوماً من الأيام كفؤاً للهاشمية ، وإنما كانت عدوتها التى تخافها على سلطانها ، وتناوئها دون هوادة .

ولا تنس الاختلاف أيضاً بين هذين الأخوين فى الطبع والمزاج والسيرة .

كان الحسن صاحب أناة ورفق ، كرّها إليه الحرب وسفك الدماء وحملاد

على أن يؤثر السلم ويترك خلافة تكلفه مثل ما كلفت أباه من أهوال الحرب .

وكان الحسين كأبيه ، صارماً فى الحق لا يحب الرفق ولا الهوادة ولا التسامح فيما لا ينبغى التسامح فيه ، وكان صارماً على نفسه وعلى غيره يتجرع مرارة الصبر على ما لا يجب ، رأى الوفاء لأخيه حقًّا عليه ، فوفى له وأطاعه كما أطاع أباه من قبله ، كما كان الحسين صاحب فطنة وحسن النظر فى الأمور .

ولقد كان لهاتين السياستين آثار ظاهرة ، فلم يؤذ الشيعة فى أنفسهم ولا فى أموالهم ما عاش الحسن كانوا يعارضون فى لين وينكرون فى رفق ، وكان معاوية وولاته يسمعون منهم ويكفون عنهم وربما استصلحوهم بالقول والعمل ، فلما صار أمر الشيعة إلى الحسين عنفت المعارضة وكادت تصبح ثورة فى الكوفة ، فلقيها معاوية وولاته بالشدة بل بالإسراف فى الشدة حتى تجاوزوا فى قمعها كل معقول .

وكانت نتيجة هذه الشدة أن عظم أمر الشيعة فى الأعوام العشرة الأخيرة من حكم معاوية ، وانتشرت دعوتهم أى انتشار فى شرق الدولة الإسلامية وفى جنوب بلاد العرب ، ومات معاوية حين مات ، وكثير من الناس وعامة أهل العراق بنوع خاص يرون بُغض بنى أمية وحب أهل البيت .

ولم يكن من الاحتمال البعيد ما قدره الحسن بن على احتمالا قريباً فيما لو اشتبك مع معاوية فى حرب يائسة تجر بذيولها أكبر كارثة فى الإسلام وأن تبيد بمكائدها آخر نسمة تنبض بفكرة التشيع لأهل البيت ، ولمعاوية قابلياته

الممتازة لتنفيذه هذه الخطة وتصفية الحساب الطويل فى التاريخ وهو هو فى عدائه الصريح لعلىّ وأولاده وأنصارهم .

أما الحسين فقد كفى مثل هذا الاحتمال حين كان خصمه الغلام المترف الذى لا يحسن قيادة المشاكل ولا تعبئة التيارات ، ولا حياكة الخطط ثم هو لا يعنيه من الأمر إلا أن يكون الملك ذا الخزائن حتى ولو واجهه الأخطل الشاعر بقوله :

ودينك حقًّا كدين الحمار بل أنت أكفر من هرمز

وكفى الحسين هذا الاحتمال بما ضمنه سيف الإرهاب الذى طارد الشيعة تحت كل حجر ومدر فى الكوفة وما إليها والذى حفظ فى غيابات السجون والمهاجر وكهوف الجبال سيلاً من السادة الذين كانوا يحملون مبادئ أهل البيت وكانوا يؤتمنون على إيصال هذه المبادئ إلى الأجيال بعدهم .

فرأى أن يمضى فى تصميمه مطمئنًّا على خطته وأهدافه وعلى مستقبلهما من أعدائه أما الحسن فلم يكن له أن يطمئن على مخلفاته المعنوية طمأنينة أخيه وفى أعدائه معاوية .

وقد أفاد الحسين من غلطات معاوية فى غاراته على بلاد الله الآمنة المطمئنة ، وفى موقفه من شروط صلح الحسن وفى قتله الحسن بالسم وفى بيعته لابنه يزيد وفى أشياء كثيرة أخرى بما زاد حركته فى وجه الأموية قوة ومعنوية وانطباقاً صريحاً على وجهة النظر الإسلامى فى الرأى العام ، وأفاد إلى ذلك ،

من مزالق الشاب (خليفة معاوية) فكانت كلها عوامل تتصرف معه فى تنفيذ أهدافه .

وكانت ظروفه من أعدائه وظروفه من أصدقائه تتفقان معاً على تأييد حركته وإنجاز مهمته، والأخذ به إلى النصر المجنح الذى فاز به فى الله وفى التاريخ .

أما الحسن فقد أعيته ظروفه من أصدقائه فحالت بينه وبين الشهادة وظروفه من أعدائه فحالت بينه وبين مناجزتهم الحرب التى كانت معناها الحكم على مبادئه بالإعدام ، لذلك رأى لزاماً أن يطور طريقة جهاده وأن يفتتح ميدانه من طريق الصلح .

وما كانت الألغام التى وضعها الحسن فى الشروط التى أخذها على معاوية إلا وسائله الدقيقة التى حكمت على معاوية وحزبه بالفشل الذريع فى التاريخ .

ويتفق رأيى مع رأى زميلى الكبير الأستاذ حسن كامل الملطاوى فى موقف الإمام الحسن وفى مقارنته بالإمام الحسين فنقول : إن الحسن رضى الله عنه سلم الأمر لمعاوية ولم يفعل الإمام الحسين مثله مع يزيد ولعل اختلاف الموقفين يثير شكوكاً فى أفهام بعض الناس والمنصف المتأمل يرى أن كلا منهما كان مجتهداً فى رأيه ومحقاً فى موقفه .

أما عذر الإمام الحسن فى التنازل فقد تبين أن أنصار معاوية كانوا من أهل الدنيا تلعب الأموال بأهوائهم وقد عرف معاوية علتهم فنثر عليهم الذهب والفضة نثراً فوجدوا فى يد معاوية ما يشتهون ، وكان معاوية صالحاً لأهل الدنيا ، وكان

أهل الدنيا صالحين لمعاوية ، وقد قال عمرو بن العاص لا يصلح لهذا الأمر إلا رجل له ضرسان يأكل بأحدهما ويطعم بالآخر ، وما قاله معاوية : « لأستميلن بالدنيا ثقاة على ولأقسمن فيهم الأموال حتى تغلب دنياى آخرته » ، فلم يكن فى أهل العراق أحد فى قلبه مرض إلا طمع فى معاوية .

أما أنصار الإمام الحسن فهم أنصار أبيه وقد وصفهم أبوه فقال : « أيها الناس المجتمعة أبدانهم ، المختلفة أهواؤهم » وقليل منهم من كان معه قلباً وقالباً .

وقد طلب الإمام الحسن خلافة الراشدين وخاف الله كأبيه فى أموال المسلمين فلم ينثر على جنوده الأموال نثراً بل أراد أن يقاتل الناس معه انتصاراً للحق وطلباً للآخرة فلم يتحمس لذلك منهم إلا أهل الصدق والوفاء والدين وقليل ما هم ، ولقد خذله فى موقف الجد ابن عمه عبيد الله بن عباس والتمس الناس ليصلى بهم الصبح فوجدوه فى عسكر معاوية فلا ردعه دينه وورعه ، ولا ردعته عصبيته لبنى هاشم ، فلم يبق إلى جوار خليفة الحق وابن عمه أمير المؤمنين الحسن عليه السلام وغلبت دنياه على دينه وخمدت حمية العصبية فكان منه ذلك الموقف المخزى ، وقد ذهب المال الذى أغراه وبقى لاصقاً به عار الموقف ، وكان للحق أنصار أوفياء فى صف الإمام الحسن لكنه فى قلة من أمثال قيس بن سعد ، وعدى بن حاتم ، لكن معاوية كان معه عشرات الألوف يأتمرون بأمره وينتهون بنهيه ، لذلك لم يكن عجيباً أن ترى جند الإمام الحسن اعتدوا عليه ونهبوا عسكره وشتموه على مسمع الناس فى سفاهة الحمق

الذين لا يكادون يفقهون قولا .

وقد عارض الشيعة معارضة قوية صلح الإمام الحسن بعد موته وشجعتهم معارضة الإمام الحسين لسياسة معاوية كما شجعتهم قسوة ولاة معاوية فى معاملتهم وبخاصة ما كان منها على يد زياد وابنه عبد الله وآلت الخلافة لمعاوية عن رضا وصلح من الإمام الحسن .

ولكن يزيد آلت إليه الخلافة عن معارضة من الإمام الحسين وسائر أبناء المهاجرين .

وكان الصراع بين الحسين ويزيد أول تجربة من قبيلها بعد عهد النبوة وعهد الخلفاء الأولين . وقد بذل فيها الحسين روحه وطبيعة الشهادة موكلة ببذل الحياة لما هو أدوم من الحياة فهو أبو الشهداء وينبوع شهادة متعاقبة لا يقرن بها ينبوع فى تاريخ البشر أجمعين .

ويرى ابن أبى الحديد أن كلا من الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام كان مجتهداً فيما رآه ، فسلم الإمام الحسن الأمر إلى معاوية ونازع الإمام الحسين يزيد فى الخلافة وعمل كل فى موقفه بموجب اجتهاده وما غلب على ظنونهما من المصلحة .

وقد كان تمكن الإمام الحسن من المصلحة الحاضرة أكثر من تمكن الإمام الحسين فى حاله الحاضرة لأن جند الحسن كانوا حوله وهم كما روى مائة ألف سيف ولم يكن مع الإمام الحسين من يحيط به ويسير بمسيره إلى العراق إلا دون مائة فارس ، ولكن ظنهما فى عاقبة الأمر ومستقبل الحال كان مختلفاً .

فكان الإمام الحسن يظن خذلان أصحابه عند اللقاء والحرب .

وكان الإمام الحسين يظن نصرة أصحابه عند اللقاء والحرب .

فلذلك أحجم أحدهما وأقدم الآخر .

ويقول ابن أبى الحديد : وقد صح فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم أنه لما شاور فى أمر أسرى بدر أبا بكر أشار ألا يقتلهم ، وأشار عمر بقتلهم فمدحهما رسول الله صلى الله عليه وسلم جميعاً .

ويتضح شعار الحسين عليه السلام حين طلبوا إليه أن يبايع ، فقال لقائد الجيش الذى أرسلوه لقتاله « أبالموت تخوفنى » .

العودة إلى المدينة

أقام الإمام الحسن بالكوفة أياماً ثم عزم رضى الله عنه على مغادرتها إلى مدينة جده عليه الصلاة والسلام ، وودعه جمهرة من المسلمين وفى مقدمتهم الصحابى ظبيان بن عمارة التيمى والمسيّب بن نجية الفزارى ، فقال الإمام الحسن : « الحمد لله الغالب على أمره لو أجمع الناس جميعاً على ألا يكون ما هو كائن ما استطاعوا » وتكلم المسيب وعرض إخلاصه الصميم لأهل البيت .

فقال له الحسين رضى الله عنه : « يا مسيب نحن نعلم أنك تحبنا » .

وقال الحسن رضى الله عنه : « سمعت أبى يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من أحب قوماً كان معهم » .

ثم عرض له المسيب وظبيان بالرجوع فقال : « ليس إلى ذلك سبيل » .

فلما كان الغد خرج من الكوفة وشيعه الناس بالبكاء وكان معه سيد الشهداء الحسين بن على رضى الله عنه وأهل بيته ، ولم تكن إقامته فيها بعد الصلح إلا أياماً قلائل .

فلما صار بدير هند (الحيرة) نظر إلى الكوفة وقال :

ولا عن قلى فارقت دار معاشرى
هم المانعون حوزتى وذمارى[1]

وفى كلام الإمام التسليم لقضاء الله وقدره والحزن على ضياع حقه الشرعى ، وقد ندب أهل الكوفة حظهم التعس بنقل الخلافة ومعها بيت المال من بلدهم إلى دمشق .

وفى يثرب مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم استقبله أهلها أحسن استقبال ، على أن معاوية لما سافر إليها ورأى بعينه تكريم الناس وحفاوتهم بالإمام وإكبارهم له ساءه ذلك ، فاستدعى أبا الأسود الدؤلى والضحاك بن قيس الفهرى فاستشارهم فى أمر الحسن وطلب منهم الرأى فى الطريقة التى يوصمه بها ليتخذ من ذلك وسيلة إلى الحط من شأنه والتقليل من أهميته أمام الجماهير ، واختلفت المشورة فأشار أبو الأسود[2] بعدم التعرض للإمام الحسن وكانت مشورته

---

(١) ابن أبى الحديد .

(٢) وأبو الأسود الدؤلى هو الذى قال :

أحب محمداً حباً شديداً وعباساً وحمزة والوصيا
هوى أعطيته منذ استدارت رحى الإسلام لم يعدل سويا =

الصواب ، فأى نقص أو عيب فى الإمام حتى يوصمه به وهو المطهر من كل رجس ونقص كما نطق بذلك الذكر الحكيم ، وأشار عليه الضحاك بن قيس بأن ينال من الإمام ويتطاول عليه ، واستجاب معاوية فعلا لرأى الضحاك ، وهاجم الإمام.

وقد رد عليه الإمام الحسن قائلا :

« أيها الناس من عرفنى فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى فأنا الحسن بن على ابن أبى طالب أنا ابن نبى الله ، أنا ابن من جعلت له الأرض مسجداً وطهوراً ، أنا ابن السراج المنير أنا ابن البشير النذير ، أنا ابن خاتم النبيين وسيد المرسلين وإمام المتقين ورسول رب العالمين أنا ابن من بعث إلى الجن والإنس أنا ابن من بعث رحمة للعالمين » .

واسترسل فقال : « أنا ابن مستجاب الدعوة ، انا ابن الشفيع المطاع أنا ابن أول من ينفض رأسه من التراب ويقرع باب الجنة ، أنا ابن من قاتلت الملائكة معه ولم تقاتل مع نبى قبله أنا ابن من ذلت له قريش رغماً » .

وغضب معاوية وكان حاضراً فقال : « أما أنك تحدث نفسك بالخلافة » فأجابه الإمام الحسن عمن هو أهل بالخلافة قائلا :

« أما الخلافة فلمن عمل بكتاب الله وسنته . وليست الخلافة لمن خالف كتاب الله وعطل السنة ، إنما مثل ذلك مثل رجل أصاب ملكاً فتمتع به وكأنه

= بنو عم النبى وأقربوه ... أحب الناس كلهم إليا
فإن يك حبهم رشداً أصبه ... ولست بمخطئ إن كان غيا

انقطع عنه وبقيت تبعاته عليه » .

واستمر الإمام فى تعريف نفسه فقال :

« أنا ابن من ساد قريشاً شاباً وكهلا ، أنا ابن من ساد الورى كرماً ونبلا ، أنا ابن من ساد أهل الدنيا بالجود الصادق والفرع الباسق والفضل السابق ، أنا ابن من رضاه الله تعالى » وقد ضاق به معاوية ذرعاً وأوعز إلى القوى المنحرفة المعادية لأهل البيت بالتطاول على ريحانة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن الإمام فى كل هذه المناظرات هو الظافر المنتصر .

رفض الإمام مصاهرة الأمويين :

فى رواية[1] أن معاوية أراد أن يصاهر بنى هاشم ليحرز بذلك الشرف والمجد فكتب إلى عامله على المدينة مروان بن الحكم أن يخطب ليزيد أم كلثوم بنت عبد الله بن جعفر ، على حكم أبيها فى الصداق وقضاء دينه بالغاً ما بلغ على صلح الحيين بنى هاشم وبنى أمية ، وكان معاوية يبغى من ذلك أن يرضى عبد الله بن جعفر وعبد الله بن عباس والحسين بن على فأم كلثوم ابنة زينب بنت على ، فلو ارتبطت بينه وبين حفيدة الإمام الأسباب لرضى رؤساء بنى هاشم وقضى على الأحقاد ، فبعث مروان خلف عبد الله فلما حضر عنده فاوضه فى أمر كريمته فأجابه عبد الله :

---

(١) هناك رواية أخرى بأن محاولة المصاهرة تمت بعد وفاة الحسن مباشرة وأن الإمام الحسين رفض ذلك .

إن أمر نساءنا بيد الحسن بن على فاخطب منه .

فأقبل مروان إلى الإمام فخطب منه ابنة عبد الله .

فقال عليه السلام : اجمع من أردت ، فانطلق مروان فجمع الهاشميين والأمويين فى صعيد واحد وقام فيهم خطيباً قائلاً :

« أما بعد : فإن أمير المؤمنين معاوية أمرنى أن أخطب أم كلثوم بنت عبد الله بن جعفر ليزيد بن معاوية على حكم أبيها فى الصداق ، وقضاء دينه بالغاً ما بلغ وعلى صلح الحيين بنى هاشم وبنى أمية ويزيد بن معاوية كفؤ له ، ولعمرى لمن يغبطكم بيزيد أكثر ممن يغبط يزيد بكم ، فيزيد ممن يستسقى بوجهه الغمام » .

فرد الإمام عليه بما يأتى :

١ – أما ما ذكرت من حكم أبيها فى الصداق ، فإنا لم نكن لنرغب عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أهله وبيته .

٢ – أما قضاء دين أبيها فمتى قضت نساؤنا جمهورهن ديون آبائهن .

٣ – وأما صلح الحيين . فنحن عاديناكم لله وفى الله فلا نصالحكم للدنيا .

٤ – وأما قولك يزيد كفؤ من لا كفؤ له ، فأكفاؤه اليوم أكفاؤه بالأمس لم يزده سلطانه .

٥ – وأما قولك : من يغبطنا بيزيد أكثر ممن يغبطه بنا ، فإن كانت الخلافة قادت النبوة فنحن المغبطون ، وإن كانت النبوة قادت الخلافة ، فهو المغبوط بنا .

٦ – وأما قولك : إن الغمام يستسقى بوجه يزيد ، فإن ذلك لم يكن إلا لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفى نهاية تفنيد مزاعم مروان حطم الإمام الحسن آماله قائلا : « وقد رأينا أن نزوجها (يعنى أم كلثوم) من ابن عمها القاسم محمد بن جعفر ، وقد زوجتها منه وجعلت مهرها ضيعتى التى لى بالمدينة ، وقد أعطانى بها معاوية عشرة آلاف دينار» .

وأخبر مروان معاوية بالحادث فلما علم قال متأثراً : « خطبنا إليهم فلم يفعلوا ولو خطبوا إلينا لما رددناهم » .

وفى رواية أخرى عن معاوية بن خديج قال : أرسلنى معاوية بن أبى سفيان إلى الحسن بن على أخطب على يزيد بنتاً له – أو أختاً له – فأتيته فذكرت له يزيد .

فقال : إنا قوم لا نزوج نساءنا حتى نستأمرهن فأتيتها فذكرت لها يزيد ، فقالت : والله لا يكون ذلك حتى يسير فينا صاحبك كما سار فرعون فى بنى إسرائيل يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم .

فرجعت إلى الحسن فقلت له : أرسلتنى إلى من تسمى أمير المؤمنين فرعون .

قال عليه السلام : إياك يا معاوية وبغضنا ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« لا يبغضنا ولا يحسدنا أحد إلا زيد يوم القيامة عن الحوض بسياط من نار» .

لقد كان الإمام يعلم بدوافع معاوية ، وبما يبغيه من تشييد أسرته فكان يسعى لإحباط الوسائل التى يتخذها ويفسد عليه أمره ، وقد بلغه أنه قال : « لا ينبغى أن يكون الهاشمى غير جواد ، ولا الأموى غير حليم ولا الزبيرى غير شجاع ، ولا المخزومى غير تياه » .

وعرف عليه السلام أن غرض معاوية بذلك إنما هو تحطيم هذه الأسر وتشييد أسرته ، فرد عليه مقالته وقال « قاتله الله ، أراد أن يجود بنى هاشم فينفد ما بأيديهم ويحلم بنو أمية فيتحببوا إلى الناس ويتشجع آل الزبير فيفنوا ويتيه بنو مخزوم فيبغضهم الناس » .

وهكذا كان عليه السلام يندد بأعمال معاوية ويكشف الستار عن سوء نيته غير مكترث بسلطانه .

خرق معاوية شروط الصلح

بينت سابقاً اتفاقية الصلح التى تمت بين الإمام ومعاوية ، كما لخصت الاتفاقية فى النهاية فى شروط خمسة ، والآن نرى مدى التزام الجانبين بها .

أولا : فأما عن تسليم الأمر إلى معاوية ، فكان هذا هو الشرط الوحيد الذى لمعاوية على الحسن ، وكان الشرط الذى حظى بالوفاء من شروط هذه الاتفاقية ولم يحدث من الإمام بعد توقيعه الصلح أية محاولة لنقض شرطه هذا ولا التحدث بذلك ، ولا الرضا بالحديث عنه ، وكما بينا جاءه أنصاره بعد أن أعلن معاوية التخلف عن شروطه ، فعرضوا عليه ، وقد رجع إلى المدينة ،

أنفسهم وأتباعهم للجهاد بين يديه ، ووعده الكوفيون منهم بإخلاء الكوفة من عاملها الأموى وضمنوا له السلاح لإعادة الكرة على الشام ، فلم تهزه العواصف ولا قلقلته حوافز الأنصار المتوثبين .

ولنأخذ ما قاله سليمان بن صرد كنموذج لما قاله أصحابه ، قال وهو كما يقول ابن قتيبة ، سيد العراق ورئيسهم : « وزعم (يعنى معاوية) على رءوس الناس ما قد سمعت : إنى كنت شرطت لقوم شروطاً ووعدتهم ومنيتهم أمانى ... فإن كل ما هنالك تحت قدمى هاتين ، ووالله ما عنى بذلك إلا نقض ما بينك وبينه فأعد الحرب خدعة وأذن لى أشخص إلى الكوفة ، فأخرج عاملها منها وأظهر فيها خلعه ، وأنبذ إليه على سواء ، إن الله لا يهدى كيد الخائنين » .

وسكت ابن صرد وتكلم كل من حضر مجلسه بمثل مقالته .

وكان جواب الإمام الأخير لهم : « ليكن كل رجل منكم حلساً من أحلاس بيته ما دام معاوية حيًا ، فإن يهلك معاوية ، ونحن وأنتم أحياء سألنا الله العزيمة على رشدنا ، والمعونة على أمرنا ، وألا يكلنا إلى أنفسنا ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

ثانياً : أما الشرط الثانى وهو أن يكون الأمر للحسن من بعد معاوية .. فقد أجمع المؤرخون على أن العهد الذى أعطاه معاوية للحسن فى شروط الصلح هو أن لا يعهد بالأمر من بعده إلى أحد ، ومعنى ذلك رجوع الأمر من بعده إلى صاحبه الشرعى وهو الحسن بن على فإن لم يكن فللحسين أخيه تمشياً مع مفهوم الشرط ، وأجمع المؤرخون ، بعد ذلك ، على أن معاوية نقض هذا

العهد علناً ، وعهد من بعده إلى ابنه يزيد ، وبذلك ارتكب بهذا العمل الجرىء أكبر إثم فى دينه ، وسأبين فى نهاية هذا الفصل الوسيلة التى اتبعت مع الإمام الحسن حتى يخلو الأمر ليزيد بن معاوية .

ثالثاً : أما عن الشرط الثالث ، وهو ترك سب أمير المؤمنين وألا يذكر علياً إلا بخير ، فيقول ابن الأثير : « إن معاوية كان إذا قنت سب علياً وابن عباس والحسن والحسين والأشتر » والذى حدث أن معاوية أخذ بعد إبرام الصلح فى سب أمير المؤمنين ، وبالغ فى انتقاصه ولم يمنعه عنه انتقال الإمام إلى جوار ربه ، وكان الباعث إلى ذلك أن معاوية علم أنه لا يستقيم له أمر إلا بانتقاص الإمام والنيل منه ، وبهذه الطريقة يريد معاوية أن يشيد ملكه ، ويقرر فى أنفس الناس أن بنى هاشم لاحظ لهم فى هذا الأمر وأن سيدهم الذى به يصولون وبفخره يفخرون ، هذا حاله ، وهذا مقداره ، فيكون من ينتمى إليه ويدل به عن الأمر أبعد ، وعن الوصول إليه أشحط وأنزح[١] .

وظن معاوية أن الناس إذا كرهوا وجه السوء فى بداءة الرؤية ، فإنه حين يعود ويشمل ويتكرر تذهب عنه الوحشة ويتوارى منه القبح ، وظن معاوية أنها ستكون عادة مألوفة وسنة شريفة ؛ فإذا غابت عن الناس يوماً اشتاقوا لها وحنوا إليها ، وقيل : إنه عزل سعيد بن العاص عن إمارة يثرب لأنه امتنع عن سب الإمام ، وقيل : إن معاوية كان يقول فى آخر خطبته : « اللهم إن أبا تراب (يعنى علياً) ألحد فى دينك وصد عن سبيلك فالعنه لعناً وبيلا وعذبه عذاباً

(١) خطط الشام عن أبى الحديد .

أيماً » . وكتب بذلك إلى الآفاق ، فكانت هذه الكلمات يشاد بها على المنابر .

وذكر الحافظ السيوطى أنه كان فى أيام بنى أمية أكثر من سبعين ألف منبر يلعن عليها ابن أبى طالب وذلك بما سنه لهم معاوية ، وفى ذلك يقول العلامة أحمد حفظى مصطفى الشافعى :

وقد حكى الشيخ السيوطى أنه قد كان فيما جعلـــوه سنه
سبعون ألف منبر وعشرةَ من فوقهـــن يلعنون حيدره
وهـــذه فى جنبهـــا العظائم تصغر بل توجـــه اللوائم

وقد كان مجهود معاوية فى هذا السبيل ما طفحت به السير والتواريخ وهو أول من سنّ الجهر بسب صحابة الرسول وأول من فتح هذا الباب على مصراعيه .

ولكن هل نجح معاوية ، لقد أخطأ معاوية الرأى وجاوز الحلم الذى قالوا إنه وسم به وعادت البدعة بغير ما ظن ورأى ، فإنها كانت تحدث فى نفوس الناس وجمة غيظ واستغفارة ندم يفطن لها الخطيب الفطين فيعثر ويتلعثم وتغيب عن غير الفطن فتنطلق اللعنة حارقة صارخة من القلوب .

وقيل إن معاوية قدم الخطبة على صلاة العيد لأن الناس كانوا يكرهون سماع اللعن فكانوا إذا أدوا الصلاة خرجوا من المسجد فألزمهم بتقديم الخطبة لسماع المسبة ، ولكنهم كانوا إذا فرغوا من سماع الخطبة اجتمعوا — ولا سيما الطالبيون — بعد كل صلاة وصبوا لعناتهم على بنى أمية جميعاً .

وخاض خطباء البلدان فسبوا على بن أبى طالب على المنابر بأمر الأمير وجاوز

خطباء بنى أمية حد النهية والمروءة فى الجهر بها ، ونطق بها عبد العزيز بن مروان فيمن نطق على منبر المسجد الجامع بفسطاط مصر ، ولكنه كان فطناً فقلق ورجف وتعثر وتلعثم كلما هم بها ، فأحس القلوب تغضب ورأى الوجوه تشيح وسمع الأفواه تزفر . ولكنه كان تقليداً مرسوماً ولم ينهه أحد عنه ولو وجد من يكفه لكف .

واستمرت هذه العادة سارية إلى أن تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة ، ولنستمع أولا إلى ما قاله الخليفة الزاهد فقد قال : « كان أبى إذا خطب فنال من علىّ رضى الله عنه تلجلج فقلت : يا أبت ، إنك تمضى فى خطبتك فإذا أتيت على ذكر على عرفت منك تقصيراً . قال : أوفطنت إلى ذلك ؟ قلت نعم . فقال : يا بنى إن الذين حولنا لا يعلمون من على ما نعلم تفرقوا عنا إلى أولاده » .

ولكن عمر بن عبد العزيز كان قد غلبه الصبا والنسيان فحين عاد إلى المدينة لطلب العلم خاض فى البدعة ونزع إليها منازع أهله – ولم يكن يعرف فى نفسه حبًّا لعلى بن أبى طالب حتى دله عليه راهب قريش – وفى ذلك يقول الخليفة الزاهد : « كنت بالمدينة أتعلم العلم وكنت ألزم عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ابن مسعود فبلغه عنى شىء من ذلك فأتيته يوماً وهو يصلى فأطال الصلاة فقعدت أنتظر فراغه فلما فرغ من صلاته التفت إلى فقال لى : متى علمت أن الله غضب على أهل بدر وبيعة الرضوان بعد أن رضى عنهم ؟ قلت : لم أسمع ذلك – قال : فما الذى بلغنى عنك فى على ؟ فقلت : معذرة إلى الله وإليك

وتركت ما كنت عليه ! » .

ورأى الخليفة عمر بن عبد العزيز أن يمحو البدعة ويدفع الناس عن سفساف الأمور فكان أول ما أمر به أن منع الناس عن السب وكتب بالمنع إلى جميع عماله وولاته وأمر أن يجعل بدل اللعن فى خطبة الجمعة والأعياد قوله تعالى : (ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم) وقوله تعالى : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) .

ولما أبطل سب علىّ أقبل عليه كثير عزه ينشده ويقول :

وليت فلم تشتم عليًّا ولم تخف ... بريًّا ولم تتبع مقالة مجرم
تكلمت بالحق المبين وإنما ... تبين آيات الهدى بالتكلم
وصدقت معروف الذى قلت بالذى ... فعلت فأضحى راضياً كل مسلم

وبذلك يكون عمر بن عبد العزيز قد سجل مكرمة لا تنسى مدى الأجيال ، وقد مدحه الشاعر السيد الشريف الرضى رحمه الله على ذلك فقال :

يا ابن عبد العزيز لو بكت العـ ... ـين فتى من أميـة لبكيتك
غير أنى أقول إنك قـد طبـ ... ـت وإن لم يطب ولم يزك بيتك
أنت نزهتنا عن السب والقـذ ... ـف فلو أمكن الجزاء جزيتك
ولو أنى رأيت قبرك لأستحيـ ... ـيت من أن أرى وما حييتك
وقليل إن لو بذلت دمـاء الـ ... ـبدن ضرباً عن الذرى وسقيتك

دير سمعان فيك مأوى أبي حفـ ص بودى لـو أنني آويتك
دير سمعـان لا أغبك غيث . خير ميت من آل مروان ميتك (١)

وقد أثار سب الإمام على سخط الأخيار من المسلمين ولأن سب المسلم من أفحش المحرمات فقد أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « سباب المسلم فسوق » وقال أيضاً : « لا يكون المؤمن لعاناً » .

---

(١) لم يكتف بنو أمية بسب على بل إنهم حرموا أن يذكر اسمه بين أيديهم ، وكان زريق مولى على بن أبي طالب قد حفظ القرآن والفرائض ، ولكنه لم يرزق شيئاً من بيت المال فوفد على عمر فقال يا أمير المؤمنين : إني رجل من أهل المدينة ، وقد حفظت القرآن والفرائض وليس لى عطاء فى الديوان ، فقال عمر : ولم يرحمك الله ؟ من أى الناس أنت ؟ فقال زريق : رجل من موالى بنى هاشم .

فقال عمر : مولى من ؟ فسكت زريق وهم واحد من الناس أن يجيب فقال عمر لزريق : إليك أسألك ، وصاح به : أتكتمنى من أنت ؟

فقال زريق بصوت خافت كأنه نجوى : أنا مولى على بن أبي طالب (قد خاف أن يجهر) فقال عمر رافعاً صوته [وأنا مولى على — أتكاتمنى ولاء على] .

حدثنى سعيد بن المسيب عن سعد بن أبي وقاص أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من كنت مولاه فعلى مولاه » .

وقال عمر بن مورق : كنت بالشام وعمر بن عبد العزيز يعطى الناس فتقدمت إليه فقال لى : من أنت ؟ قلت : من قريش — قال من أى قريش قلت : من بنى هاشم — قال : من أيهم فسكت فقال : من أى بنى هاشم ؟ قلت مولى على بن أبي طالب .

فوضع يده على صدره وقال : أنا مولى على بن أبي طالب حدثنى عدة أنهم سمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من كنت مولاه فعلى مولاه ، ثم قال : يا مزاحم كم تعطى أمثاله ؟ قال مزاحم : مائة درهم أو مائتين فقال : أعطه خمسين ديناراً لولائه لعلى بن أبي طالب عليه السلام ، ثم قال له عمر : الحق ببلدك فسيأتيك مثل نظرائك .

فقد رأى الصحابى زيد بن أرقم المغيرة بن شعبة يعلن سب أمير المؤمنين ، فانبرى له منكراً سبه للإمام قائلا : « يا مغيرة ألم تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن سب الأموات فلم تسب علياً وقد مات ؟ »[1]

ومن الذين غضبوا لسب الإمام سعد بن أبى وقاص ، وقد قال لمعاوية : « يا معاوية والله لأن يكون فىّ خصلة واحدة من خصال كانت لعلى أحب إلىّ من أن يكون له ما طلعت عليه الشمس ، والله لأن أكون صهراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وفى من الولد ما لعلى أحب إلىّ من أن يكون لى ما طلعت عليه الشمس والله لأن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى ما قال له فيه يوم خيبر « لأعطين الراية غداً رجلاً يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله ، ليس بفرار يفتح الله على يديه » أحب إلى من أن يكون لى ما طلعت عليه الشمس ، والله لأن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى ما قال فى غزوة تبوك : « ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى » أحب إلى من أن يكون لى ما طلعت عليه الشمس .

ولنستمع إلى المحاورة التى جرت بين معاوية وابن عباس فهى تكشف عن الخطط التى سلكها معاوية فى إخفاء مآثر الإمام وفى حجب مناقبه وفضائله :

ذكر المؤرخون أن معاوية بعد عام الصلح حج بيت الله الحرام فاجتاز على جماعة من قريش فقاموا إليه سوى ابن عباس فبادره معاوية قائلا :

– يا بن عباس ما منعك من القيام كما قام أصحابك إلا لموجدة على

(١) الأغانى .

بقتالى إياكم يوم صفين ؟ يا ابن عباس إن ابن عمى عثمان قتل مظلوماً .

– فعمر بن الخطاب قد قتل مظلوماً فسلم الأمر إلى ولده وهذا ابنه – وأشار إلى عبد الله بن عمر –

– إن عمر قتله مشرك .

– فمن قتل عثمان ؟

– قتله المسلمون .

– فذلك أدحض لحجتك إن كان المسلمون قتلوه وخذلوه فليس إلا بحق .

– فإنا كتبنا إلى الآفاق تنهى عن ذكر مناقب على وأهل بيته فكف لسانك يا بن عباس .

– فتنهانا عن قراءة القرآن ؟

– لا .

– فتنهانا عن تأويله ؟

– نعم

– فأيهما أوجب علينا قراءته أو العمل به ؟

– العمل به .

– فكيف نعمل به حتى نعلم ما عنى الله بما أنزل علينا ؟

– سل عن ذلك من تأويله على غير ما تتأوله أنت وأهل بيتك .

– إنما أنزل القرآن على أهل بيتى أفأسأل عنه آل أبى سفيان وآل أبى معيط ؟

– فاقرءوا القرآن ولا تروا شيئاً مما أنزل الله فيكم ، ومما قال رسول الله

واروا ما سوى ذلك .

– قال الله تعالى : (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواهم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) .

– يا بن عباس اكفنى نفسك وكفّ عنى لسانك ، وإن كنت فاعلا فليكن سرًّا ولا تسمعه أحداً علانية[١] .

ومن أشد المنكرين لسبّ الإمام الشاعر كثير بن كثير السهمى ، وفى ذلك يقول :

لعن الله من يسب عليّا ... وحسيناً من سوقة وإمام
أيسب المطهرون جدوداً ... والكرام الأخوال والأعمام
يأمن الطير والحمام ولا ... يأمن آل الرسول عند المقام
طبت بيتاً وطاب أهلك أهلا ... أهل بيت النبى والإسلام
رحمة الله والسلام عليهم ... كلما قام قائم بسلام[٢]

ودخل الأحنف بن قيس على معاوية ، فلما استقر به المجلس قام وغد أثيم خطيباً ، فافتتح خطابه بسب أمير المؤمنين ، وثقل ذلك على الأحنف فالتفت إلى معاوية وقد اسودّ الفضاء فى وجهه مما داخله من الحزن قائلا : « إن هذا القائل لو يعلم أن رضاك فى لعن المرسلين لعنهم ، فاتق الله يا معاوية ودع عنك عليًّا فلقد لقى ربه ، وأفرد بقبره وخلى بعمله كان والله مبروراً

(١) شرح النهج ابن أبى الحديد .
(٢) شرح ابن أبى الحديد .

فى سبقه – أى إلى الإسلام – طاهر الثوب ميمون النقيبة عظيم المصيبة » . فالتاع معاوية من هذا التقريع وتألم من هذا الثناء العاطر على الإمام علىّ ، فالتفت إلى الأحنف قائلا : « يا أحنف لقد أغضيت العين على القذى وقلت ما ترى ، أما والله لتصعدن المنبر وتلعن علياً كرهاً أو طوعاً » ، فقال له الأحنف : « إن تعفنى فهو خير لك ، وإن تجبرنى على ذلك فوالله لا تجرى شفتاى به أبداً » .

ولم يعتن معاوية بكلامه وقال له : « قم فاصعد المنبر » .

– أما والله لأنصفنك فى القول والفعل .

– وما أنت قائل إن أنصفتنى ؟

– أصعد المنبر فأحمد الله وأثنى عليه وأصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم أقول : أيها الناس ، إن أمير المؤمنين معاوية أمرنى أن ألعن علياً ، وإن علياً ومعاوية اختلفا واقتتلا ، فادعا كل واحد منهما أنه بغى عليه وعلى فئته ، فإذا دعوت فأمنوا رحمكم الله ، ثم أقول : اللهم العن أنت وملائكتك وأنبياؤك وجميع خلقك الباغى منهما على صاحبه والعن الفئة الباغية ، اللهم العنهم لعناً كثيراً – أمنوا رحمكم الله – يا معاوية ، لا أزيد على هذا ولا أنقص حرفاً ولو كان فيه ذهاب روحى .

فراوغ معاوية وقال : « إذاً نعفيك يا أبا بحر »[1] .

وماذا كانت النتيجة أراد معاوية تحطيم شخصية الإمام على ، وأراد الله

---

(١) العقد الفريد .

سبحانه وتعالى غير ذلك ، وها هو ذا قبر أمير المؤمنين كعبة للوافدين من المسلمين ، وها هو ذا معاوية وقبره محطم استولى عليه الهوان ، ويقول أحد الشعراء فى ذلك :

هذا ضريحك لو بصرت ببؤسه ... لأسال مدمعك المصير الأسود
كتل من الترب المهين بخربة ... سكر الذباب بها فراح يعربد
خفيت معالمها على زوارها ... فكأنها فى مجهل لا يقصد
ومشى بها ركب البلى فجدارها ... عارٍ يكاد من الضراعة يسجد
والقبة الشماء نكّص طرفها ... فبكل جزء للفناء بها يد
تهمى السحائب من خلال شقوقها
والريح فى جنباتها تتردد
حتى المصلى مظلم فكأنه ... مذ كان لم يجتز به متعبد

رابعاً : من شروط الصلح التى اشترطها الإمام على معاوية أن يعطيه خراج دارابجرد ليرفه بذلك على الفقراء والمعوزين من شيعته ، ولكن معاوية لم يف بذلك .

خامساً : وكان الشرط الخامس هو العهد بالأمان العام وعدم التعرض لأنصار علىّ على الخصوص وأنصار ابنه بسوء أو مكروه ، ولكن معاوية جعل من أهدافه القضاء على هذه الطبقة المؤمنة التى آمنت بحق أهل البيت ، وقد لاقى أنصار أهل البيت من الأذى والاضطهاد ما تنوء بحمله الجبال ، وكان أشدهم بلاءً وأعظمهم محنة وشقاءً أهل الكوفة ، فقد استعمل عليهم معاوية زياداً بعد هلاك المغيرة ، وكان بهم عالماً فأشاع فيهم القتل والإعدام وشردهم

وطردهم [١] .

وقيل : إن معاوية أرسل إلى جميع عماله وولاته رسالة جاء فيها « انظروا إلى من قامت عليه البينة أنه يحب علياً وأهل بيته فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه » .

وفى ذلك يقول الباقر رضى الله عنه : « وقتلت شيعتنا بكل بلدة وقطعت الأيدى والأرجل على الظنة ، وكان من يذكر بحبنا والانقطاع إلينا سجن أو نهب ماله أو هدمت داره »[٢] ، وأصبحت مودة أهل البيت كفراً وإلحاداً ومروقاً من الدين ، وفى ذلك يقول الكميت :

يشيرون بالأيدى إلىّ وقولهم ... ألا خاب هذا والمشيرون أخيب
فطائفة قد كفرتنى بحبكم ... وطائفة قالوا مسىء ومذنب
يعيبوننى من خبهم وضلالهم ... على حبكم بل يسخرون وأعجب
وقالوا ترابى هواه ورأيه ... بذلك أدعى فيهم وألقب

ويقول عبد الله بن كثير السهمى ، على من عابه على موالاة أهل البيت بقوله :

إن امرأ أمست معايبه ... حب النبى لغير ذى ذنب
وبنى أبى حسن ووالدهم ... من طاب فى الأرحام والصلب
أبعد ذنباً أن أحبهم ... بل حبهم كفارة الذنب[٣]

---

(١) شرح ابن أبى الحديد .
(٢) شرح ابن أبى حديد .
(٣) البيان والتبيين .

أما بلاء أهل البيت وما تعرضوا له من الاضطهاد والقتل والاغتراب ، وهو بلاء تحملوه بالصبر الجميل مرضاة لله تعالى ، فإنى أرجو أن يوفقنى الله سبحانه وتعالى أن يكون هذا موضوع الجزء الثانى من هذا الكتاب إن شاء الله .

على أن جميع ما بذله معاوية لكى يجعل الخلافة والملك وراثة فى ذريته ، وقد بذل جميع جهوده ومساعيه فى تحقيق ذلك .

ومن ذلك أنه بعد أن قبل نصيحة زياد التى نصحه فيها بالتؤدة وألا يعمل وأن يتريث مدة أخرى بعد ما بدأ المحاولة بالشام وعارضه الكثيرون ، وكان مما قاله الأحنف لمعاوية : « يا أمير المؤمنين ، إنا قد فررنا عنك قريش فوجدناك أكرمها زنداً وأشدها عقداً وأوفاها عهداً ، وقد علمت أنك لم تفتح العراق عنوة ولم تظهر عليها قعصاً ، ولكنك أعطيت الحسن بن على من عهود الله ما قد علمت ليكون له الأمر من بعدك ، فإن تف فأنت أهل الوفاء ، وإن تغدر تعلم والله أن وراء الحسن خيولا جياداً وأذرعاً شداداً وسيوفاً حداداً ، إن تدن له شبراً من غدر تجد وراءه باعاً من نصر ، وإنك تعلم أن أهل العراق ما أحبوك منذ أبغضوك ولا أبغضوا علياً وحسناً منذ أحبوهما ، وما نزل عليهم فى ذلك غيرٌ من السماء وأن السيوف التى شهروها عليك مع علىّ يوم صفين لعلى عواتقهم ، والقلوب التى أبغضوك بها بين جوانحهم . وأيم الله إن الحسن لأحب إلى أهل العراق من علىّ » .

وقال الأحنف بن قيس أيضاً : « يا أمير المؤمنين أنت أعلمنا بليله ونهاره

وبسره وعلانيته ، فإن كنت تعلم أنه خير لك فوله واستخلفه ، وإن كنت تعلم أنه شر لك فلا تزوده الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة ، فإنه ليس لك من الآخرة إلى ما طاب ، واعلم أن لا حجة لك عند الله إن قدمت يزيد على الحسن والحسين وأنت تعلم من هما وإلى ما هما ، وإنما علينا أن نقول : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » .

وكما قلت إزاء هذه المعارضة ، رأى معاوية أن يتريث ، ولكن إلى حين ، لأن الفكرة قد ملكت عليه فؤاده ، وكان يعلم أن خيرة الصحابة لن يبايعوا يزيد فرأى أن ينطلق إلى المدينة ليفاوضهم يمنيهم مرة ويتوعدهم مرة أخرى لعله يستطيع أن يطويهم بدهائه أو يشتريهم بماله ، ودخل المدينة وبعث إلى عبد الله ابن عباس وعبد الله بن جعفر وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير ، فلما اكتمل اجتماعهم قال لهم : « الحمد لله الذى أمرنا بحمده ووعدنا عليه ثوابه نحمده كثيراً كما أنعم علينا كثيراً ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد فإنى قد كبرت سنى ووهن عظمى وقرب أجلى وأوشكت أن أدعى فأجيب ، وقد رأيت أن أخلف عليهم بعدى يزيد ورأيته لكم رضاً وأنتم خيار قريش ولم يمنعنى أن أحضر حسناً وحسيناً إلا أنهما أولاد أبيهما ، على حسن رأيى فيهما وشديد محبتى لهما فردوا على أمير المؤمنين خيراً يرحمكم الله » وقد عارضه الجميع ، وكان مما قاله عبد الله بن عباس : « إن الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه اختار محمداً صلى الله عليه وسلم لرسالته واختاره لوحيه وشرَّفه على خلقه فأشرف الناس

من تشرف به وأولاهم بالأمر أحقهم به ، وإنما على الأمة التسليم لنبيها إذا اختاره الله لها فإنه إنما اختار محمداً بعلمه وهو العليم الخبير » .

وقال عبد الله بن جعفر : « الحمد لله أهل الحمد ومنتهاه ، نحمده على إلهامنا حمده ونرغب إليه فى تأدية حقه ، وأشهد أن لا إله إلا الله واحداً صمداً ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ، أما بعد فإن هذه الخلافة إن أخذ فيها بسنة الشيخين أبى بكر وعمر فأى الناس أفضل وأكمل وأحق بهذا الأمر من آل الرسول ، وأيم الله لو ولوه بعد نبيهم لوضعوا الأمر موضعه لحقه وصدقه ولأطيع الله وعصى الشيطان ، وما اختلف فى الأمة سيفان ، فاتق الله يا معاوية فإنك قد صرت راعياً ونحن رعية فانظر لرعيتك إنك مسئول عنها غداً ، وأما ما ذكرت من ابنى عمى وتركك أن تحضرهما ، فوالله ما أصبت الحق ولا يجوز لك ذلك إلا بهما ، وإنك لتعلم أنهما معدن العلم والكرم فقل أودع وأستغفر الله لى ولكم » .

ومما قاله ابن الزبير : « اتق الله يا معاوية وأنصف من نفسك ، فإن هذا عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله ، وهذا عبد الله بن جعفر ذو الجناحين ابن عم رسول الله ، وأنا عبد الله بن الزبير بن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلىّ خلف حسناً وحسيناً وأنت تعلم من هما وما هما فاتق الله يا معاوية وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك » .

وقال عبد الله بن عمر : « إن هذه الخلافة ليست بهرقلية ولا كسروية يتوارثها الأبناء عن الآباء ، ولو كان كذلك كنت القائم بها بعد أبى ، فوالله

ما أدخلني مع الستة من أصحاب الشورى إلا على أن الخلافة ليست شرطاً مشروطاً وإنما هي في قريش خاصة لمن كان لها أهلا ممن ارتضاه المسلمون لأنفسهم من كان أتقى وأرضى ، فإن كنت تريد الفتيان من قريش فلعمري إن يزيد من فتيانها واعلم أنه لا يغني عنك من الله شيئا » .

ولنستمع إلى رد معاوية قال : « قد قلت وقلتم ، وإنه قد ذهبت الآباء وبقيت الأبناء ، فابني أحب إليّ من أبنائهم ، وإنما كان هذا الأمر لبني عبد مناف لأنهم أهل رسول الله ، فلما مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولي الناس أبا بكر وعمر من غير معدن الملك ولا الخلافة ، غير أنهما سارا بسيرة جميلة ، ثم رجع الملك إلى بني عبد مناف ، فلا يزال فيهم إلى يوم القيامة ، وقد أخرجك الله يا بن الزبير وأنت يا بن عمر منها ، فأما ابنا عمي هذان ، فليس بخارجين من الرأي إن شاء الله » .

وأخيراً وجد أنه لن يظفر بما يريد ما دام الإمام حسن حيًّا وعلم أيضا أنه لا يمكن إنجاز مهمته إلا بالتفكير في القضاء عليه ووجد في « جعدة بنت الأشعث » الأداة التي تمكنه من تنفيذ خطته فأبوها الأشعث بن قيس كان ممن أرغم الإمام عليًّا على قبول التحكيم وإنه ليطمع في أن يجد في الابنة عوناً كما وجد في الأب عوناً وقيل إنها وضعت له السم في اللبن وكان الإمام صائماً فتناول منه جرعة فلما وصل إلى جوفه تقطعت أمعاؤه ، فقال وقد أحس بألم شديد : « إنا لله وإنا إليه راجعون الحمد لله على لقاء محمد سيد المرسلين

وأبى سيد الوصيين وأمى سيدة نساء العالمين وعمى جعفر الطيار وحمزة سيد الشهداء » .

بهذا يتفق أكثر المؤرخين أن الإمام مات مسموماً ، وذهب فريق آخر إلى أن يزيد هو الذى سم الإمام .

على أن ابن خلدون ينفى عن معاوية هذه الجريمة ويقول : « وما ينقل من أن معاوية قد دس السم إلى الإمام الحسن على يد زوجته جعدة بنت الأشعث فهو من أحاديث الشيعة وحاشا لمعاوية ذلك » .

كما ذكر بعض المستشرقين روايات أخرى عن موته فقيل إنه مات بالسل عندما بلغ من العمر خمساً وأربعين سنة ، كما ذكر المؤرخ العالم أحمد بن سهل البلخى : « إن الإمام كان يطوف فى البيت الحرام فطعنه شخص لظهر قدمه بزج مسموم فتوفى على أثر ذلك » ، وذكر الدكتور حسن إبراهيم أن بعض المؤرخين ذهب إلى أن الإمام مات حتف أنفه بعد رجوعه من العراق إلى يثرب بأربعين يوماً ، وفى مقاتل الطالبيين قيل لأبى إسحاق : متى ذل الناس ؟ قال : حيث مات الحسن وادعى زياد وقتل حجر بن عدى . وكان الحسن رضى الله عنه شرط على معاوية فى شروط الصلح ألا يعهد إلى أحد بالخلافة بعده وأن تكون الخلافة له من بعده . قال أبو الفرج الأصفهانى : وأراد معاوية البيعة لابنه يزيد فلم يكن شىء أثقل عليه من أمر الحسن وسعد ابن أبى وقاص فدس إليهما السم فماتا منه » . أرسل إلى ابنة الأشعث أنى مزوجك بيزيد ابنى على أن تسمى الحسن وبعث إليها بمائة ألف درهم ولم يزوجها منه

فخلف عليها رجل من آل طلحة فأولدها ، فكان إذا وقع بينهم وبين بطون قريش كلام عيروهم وقالوا : يا بنى مسممة الأزواج ، وكان ذلك بعد ما مضى على إمارة معاوية عشر سنين وفى الاستيعاب قال ابن عبد البر : سم الحسن ابن على ، سمته امرأته بنت الأشعث بن قيس الكندى .

وهناك شبه إجماع على أن الإمام الحسن مات بالسم ، فالشيعة يرون أن معاوية قد دس إليه من سمه ليخلو له ولابنه وجه الخلافة ، وكذلك مؤرخو الجماعة من أهل السنة ، يرون ذلك ويكثرون من روايته ، ويستشهد بعض المؤرخين على ذلك بأن الموت بالسم قد عرف فى أيام معاوية بشكل غريب ومريب ، فقد مات الأشتر فيما يقول المؤرخون مسموماً فى طريقه إلى ولاية مصر فخلصت مصر لمعاوية ، وقال معاوية وعمرو : « إن لله جنداً من عسل » . ومات عبد الرحمن بن خالد بن الوليد مسموما بحمص ، فى خبر طويل ، وكذلك مات الحسن .

ويتحدث رجال التاريخ بأن الحسن قال لبعض عائديه فى مرضه الأخير : « لقد سقيت السم مرات ، ولكنى لم أسق قط سمًّا أشد علىّ من هذا الذى سقيته هذه المرة ، ولقد لفظت آنفاً قطعة من كبدى » .

وفى رواية أخرى : أنه لما عرف يزيد من والده معاوية اتجاهه فى أن يقلب الخلافة إلى ملك ويجعله وراثيًّا يتعاقبه ولد عن والده ، صادف ذلك هوى فى نفس يزيد لأنه يتوق إليه ويتمناه ، واختمرت الفكرة فى نفس يزيد واستبد به حب الملك عقب مقابلة المغيرة بن شعبة وترغيبه فى أن يكون ولى عهد أبيه ،

فعل هذا ثالث دهاة العرب لما علم أن معاوية يريد أن يعزله عن ولاية البصرة .

وقصد يزيد إلى أبيه وقال له : يا أبت ما أراك صنعت شيئاً لبنيك من بعدك ، وما دبرت لهم أمراً ، وعهدى بك داهية العجم والعرب ورجل السياسة والتجارب .

فابتسم له أبوه وقال : يا بنى لم أغفل عن أمر ولكنى مرتبط بعهد كتابى بينى وبين الحسن بن علىّ على أن تكون له الخلافة بعدى إذا أنا قبضت قبله فانتظر لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً .

وانصرف يزيد يفكر ويدبر فهداه تفكيره إلى أن يتخلص من العقبة التى تعترض ولايته للملك بعد أبيه فأرسل يزيد من يفاوض زوجته (جعدة بنت الأشعث) فى أن تسم الحسن مقابل مائة ألف درهم وأن يتزوجها يزيد بعد موت الحسن ، وكانت امرأة لعوباً تحب المال وتفنى فى السلطان فأعمى الله بصرها وبصيرتها وأخذت على رسول يزيد العهود والميثاق أن ينى بما وعد ثم جعلت تدبر أمرها وتضع خطتها ، وكانت جعدة قد علمت أن الحسن تزوج امرأة اسمها (خولة بنت منظور) وأنها تعلقت به تعلقاً شديداً حتى لقد بات ليلة على السطح فشدت خمارها برجله وجعلت الطرف الآخر بخلخالها ، فقام من الليل ، فقال : ما هذا : قالت خفت أن تقوم من الليل بوسنك فتسقط وأنت نائم فأكون أشأم سخلة على العرب وقد بينت ذلك من قبل ، ويقال إنه رضى الله عنه كان يقوم كثيراً ثم يمشى وهو نائم فأحبها وأقام

عندها سبعة أيام لا يذهب إلى سواها علمت جعدة هذه القصة فلما جاء الحسن بكت فى حضرته بكاء مرًّا وأظهرت من ضروب الشوق والحب والإخلاص واللوعة ما جعله يقبل على الطعام والشراب الذى قدمته إليه بشغف كثير ورغبة قوية ، فلما أصبح الصباح أحس ألماً فى أمعائه أخذ يزداد رويداً رويداً حتى خيل إليه أنه يلفظ كبده » . وقيل إنه التفت إلى « جعدة » فقال لها : « يا عدوة الله قتلتنى قتلك الله ، والله لا تصيبين منى خلفاً . ولقد غرك (يعنى معاوية) وسخر منك يخزيك الله ويخزيه » .

ولقد أخزاها الله فعلا فأصبحت مضرب الأمثال للسوء والخزى والإثم والخيانة فقد أصبحت عاراً لذريتها وأبنائها من غير الإمام فقد وصموا بأبناء مسممة الأزواج ، ولقد سخر منها معاوية فلم يف لها بزواج يزيد حيث طلبت منه ذلك فقد ردها بسخرية واستهزاء قائلا : « إنا نحب حياة يزيد ولولا ذلك لوفينا لك بتزويجه » .

ولكن كثيراً من المؤرخين يقولون إن الإمام مات مسموماً وإن معاوية وليس يزيد ، كما بينت سابقاً . هو الذى رتب وفكر ودبر . وإنه هو الذى دس إليه فقتله . ويقول عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين تعليقا على قصة السم (ولست أقطع بأن معاوية قد دس إلى الحسن من سمه ولكنى لا أقطع كذلك بأنه لم يفعل) .

أما المستشرق « رويت م . روتلدس » و« لامنس » فقد ذكرا أن الإمام الحسن مات بالسل ، وهذا القول من الغرابة بمكان ولم يذهب إليه أحد

من المؤرخين فقد أجمعوا أنه مات مسموماً ولم يصب بداء السل ، وقد كتب المستشرقون كما بينت سابقاً جميع بحوثهم على هذا الطراز فى الخلو عن التحقيق وفى الاعتماد على الافتراء والكذب .

وفى كتاب الصفوة ذكر يعقوب بن سفيان فى تاريخه أن جعدة هى التى سمته وقال الشاعر فى ذلك :

تعــز فكم لك مــن سلوة   تفــرج عنك غليل الحزن
بمــوت النبى وقتــل الوصى   وقتل الحسين وسم الحسن

وكانت آخر كلماته وهو يعانى من المرض ما قاله للصحابى : « جنادة ابن أبى أمية » قال الإمام رضى الله عنه : « يا جنادة ، استعد لسفرك وحصل زادك قبل حلول أجلك واعلم أنك تطلب الدنيا والموت يطلبك ، ولا تحمل هم يومك الذى لم يأت على يومك الذى أنت فيه ، واعلم أنك لا تكسب من المال شيئاً فوق قوتك إلا كنت فيه خازناً لغيرك ، واعلم أن الدنيا فى حلالها حساب ، وفى حرامها عقاب ، وفى الشبهات عتاب ، فأنزل الدنيا بمنزلة الميتة خذ منها ما يكفيك فإن كان حلالا كنت قد زهدت فيه ، وإن كان حراماً لم يكن فيه وزر فأخذت منه كما أخذت من الميتة ، وإن كان العقاب فالعقاب يسير ، واعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً ، وإذا أردت عزاً بلا عشيرة وهيبة بلا سلطان فاخرج من ذل معصية الله إلى عز طاعة الله عز وجل ، وإذا نازعتك إلى صحبة الرجال حاجة فاصحب من إذا صحبته زانك ، وإذا أخذت منه صانك ، وإذا أردت

منه معونة أعانك ، وإن قلت صدق قولك ، وإن صلت شد صولتك ، وإن مددت يدك بفضل مدها ، وإن بدت منك ثلمة سدها ، وإن رأى منك حسنة عدها ، وإن سألته أعطاك ، وإن سكت عنه ابتدأك ، وإن نزلت بك إحدى الملمات واساك ، من لا تأتيك منه البوائق ، ولا تختلف عليك منه الطرائق ولا يخذلك عند الحقائق وإن تنازعتما منقسماً آثرك » .

وعن الحسن بن أبي العلى عن جعفر بن محمد قال الحسن بن على لأهل بيته إنى أموت بالسم كما مات رسول الله فقال له أهل بيته ومن الذى يسمك قال جاريتى أو امرأتى فقالوا له : أخرجها من ملكك عليها لعنة الله – فقال هيهات من إخراجها ومنيتى على يدها مالى منها محيص ولو أخرجتها ما يقتلنى غيرها كان قضاء مقضيًّا وأمراً واجباً من الله فما ذهبت الأيام حتى بعث معاوية إلى امرأته قال : فقال الحسن : هل عندك من شربة لبن فقالت نعم وفيه ذلك السم بعث به معاوية فلما شربه وجد مس السم فى جسده فقال يا عدوة الله قتلتنى قاتلك الله أما والله لا تصيبين منى خلفاً ولا تنالين من الفاسق عدو الله اللعين خيراً أبداً .

وفى اللحظات الأخيرة دخل عليه أخوه سيد الشهداء فلما نظر إلى ما يعانيه من ألم اغرورقت عيناه بالدموع .

فنظر إليه الحسن ، فقال له : ما يبكيك يا أبا عبد الله .

– أبكى لما صنع بك .

واستشف الإمام الحسن بما سيجرى على أخيه من بعده فهان عليه ما هو

فيه وأرخى عينيه بالدموع وقال بنبرات مرتعشة حزينة : « إن الذى أوتى إلى سم أقتل به ، ولكن لا يوم كيومك يا أبا عبد الله ، وقد ازدلف إليك ثلاثون ألفاً يدعون أنهم من أمة جدنا محمد صلى الله عليه وسلم وينتحلون دين الإسلام فيجتمعون على قتلك وسفك دمك وانتهاك حرمتك وسبى ذراريك ونسائك وانتهاب ثقلك » .

(وفى حلية الأولياء) روى بسنده عن عمير بن إسحاق قال : دخلت أنا ورجل على الحسن بن على عليهما السلام نعوده فقال يا فلان سلنى قال لا والله لا نسألك حتى يعافيك الله ثم نسألك . قال ثم دخل ثم خرج إلينا فقال : سلنى قبل ألا تسألنى فقال بل يعافيك الله ثم أسألك . قال لقد ألقيت طائفة من كبدى وإنى سقيت السم مراراً فلم أسق مثل هذه المرة ، ثم دخلت عليه من الغد وهو يجود بنفسه والحسين عليه السلام عند رأسه وقال : يا أخى من تتهم قال : لم لتقتله ؟ قال : نعم – قال : إن يكن الذى أظن فالله أشد بأساً وأشد تنكيلا – وإلا يكن فما أحب أن يقتل بى برىء .

واشتد الوجع بالإمام فأخذ يعانى آلام الاحتضار فعلم أنه لم يبق من حياته الغالية إلا بضع دقائق فالتفت إلى أهله قائلا : « أخرجونى إلى صحن الدار ، أنظر فى ملكوت السماء » فحملوه إلى صحن الدار ورفع رأسه إلى السماء وأخذ يناجى ربه ويتضرع إليه قائلا : « اللهم إنى أحتسب عندك نفسى فإنها أعز الأنفس علىّ لم أصب بمثلها اللهم آنس صرعتى وآنس فى القبر وحدتى » .

ثم حضر فى ذهنه غدر معاوية به ونكثه للعهود فقال : « لقد حاقت

شربته ، والله ما وفّى بما وعد ولا صدق فيما قال » .

وأخذ يتلو أى الذكر الحكيم ويبتهل إلى الله ويناجيه حتى فاضت نفسه الزكية .

وصية الحسن إلى أخيه الحسين :

عن ابن عباس : هذا ما أوصى به الحسن بن على إلى أخيه الحسين ، أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنه يعبده حق عبادته لا شريك له فى الملك ولا ولى له من الذل وأنه خلق كل شىء فقدره تقديراً ، وأنه أولى من عبده وأحق من حمد من أطاعه رشد ومن عصاه غوى ومن تاب إليه اهتدى فإنى أوصيك يا حسين بمن خلفت من أهلى وولدى وأهل بيتك أن تصفح عن مسيئهم وتقبل من محسنهم وتكون لهم خلفاً ووالداً وأن تدفنى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنى أحق به وببيته فإن أبوا عليك فأنشدك الله بالقرابة التى قرب الله عز وجل منك والرحم الماسة من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا تهريق من أمرى محجمة من دم حتى تلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروى الحاكم فى المستدرك أنه لما توفى أقام نساء بنى هاشم النوح عليه شهراً وعن أبى جعفر قال : مكث الناس يبكون على الحسن بن على وعطلت الأسواق .

وروى أنه لما توفى الإمام الحسن دعا الحسين ابن عباس وعبد الرحمن بن

جعفر وعلى بن عبد الله بن عباس فأعانوه على غسله وحنطوه وألبسوه أكفانه وخرجوا به إلى المسجد فصلوا عليه .

الخلاف بشأن دفنه بجانب جده عليه الصلاة والسلام :

وقال المفيد : لما مضى لسبيله غسله الحسين رضى الله عنه وكفنه وحمله على سريره ولم يشك مروان ومن معه من بنى أمية أنهم سيدفنونه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فتجمعوا لذلك ، فلما توجه به الحسين رضى الله عنه إلى قبر جده رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحدد به عهداً أقبلوا إليهم فى جمعهم ، وقيل والله أعلم ، إن السيدة أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها عارضت فى دفنه مع جده عليه الصلاة والسلام .

وروى أبو الفرج بسنده أن الإمام الحسن عليه السلام كان قد أرسل إلى السيدة عائشة رضى الله عنها أن تأذن له أن يدفن مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فقالت نعم ما كان بقى إلا موضع قبر واحد ، فلما سمعت بذلك بنو أمية قيل إن مروان قال : يارب أيدفن عثمان فى أقصى المدينة ويدفن الحسن مع الرسول عليه الصلاة والسلام لا يكون ذلك أبداً وأنا أحمل السيف ، وكادت الفتنة أن تقع بين بنى هاشم وبنى أمية .

ويقول ابن سعد عن الواقدى : لما احتضر الحسن قال ادفنونى عند أبى ، يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأراد الحسين رضى الله عنه أن يدفنه فى حجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقامت بنو أمية ومروان بن الحكم وسعيد

ابن العاص ، وكان والياً على المدينة فمنعوه وقامت بنوهاشم لتقاتلهم .

وقيل إنه لما بلغ أبا هريرة أن مروان منع أن يدفن الإمام الحسن مع جده صلى الله عليه وسلم قال : « والله ما هو إلا ظلم ، يمنع الحسن أن يدفن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه لابن رسول الله » ، وقيل إنه قال : « أرأيتم لو مات ابن لموسى أما كان يدفن مع أبيه » .

وانطلق إلى الإمام الحسين وناشده الله وقال له : « أليس قد قال أخوك ، إن خفت أن يكون قتال فردونى إلى مقبرة المسلمين »

وجاشت لتأبى دفنه عند جده ... تثير على أشياعه رهج الحرب
أتدنى لها الويلات مستوجب النوى ... إليه وتقصى عنه مستوجب (القرب)

وكان موقف بنى أمية من تشييع جنازة الإمام الحسن موقفاً مزرياً ، فلم يشهد جنازته أحد منهم إلا سعيد بن العاص ، مع أن الإمام الحسن سالمهم وحقن دماءهم ودماء المسلمين ، ولكن أهل المدينة خرجوا جميعاً لتشييعه حتى لو طرحت فى البقيع إبرة ما وقعت إلا على رأس إنسان ، كما قال ثعلبة بن أبى مالك .

وقال الحسين رضى الله عنه : « والله لولا عهد الحسن بحقن الدماء ، وأن لا أُهريق فى أمره محجمة دم لعلمتم كيف تأخذ سيوف الله منكم مأخذها ، وقد نقضتم العهد بيننا وبينكم وأبطلتم ما اشترطنا عليكم لأنفسنا » ومضوا بالحسن رضى الله عنه فدفنوه بالبقيع عند جدته فاطمة بنت أسد .

وذكر الزمخشرى فى ربيع الأبرار ، وابن عبد البر فى الاستيعاب : أنه

قيل : لما بلغ معاوية موت الحسن رضى الله عنه سجد ، وسجد من حوله ، وكبر وكبروا معه .

وقد وصف الفضل بن العباس شماتة معاوية فقال :

أصبح اليوم ابن هنـــد شامتاً ظاهر النخـوة إذ مات الحسن
رحمـــة الله عليه إنـــه طالما أشجى ابن هنـد وأرن
استراح اليـوم منـه بعده إذ ثوى رهناً لأحداث الزمن
فارتع اليـوم ابن هنـد آمناً إنمـا يقمص بالعير السمن
لست بالباقى فلا تشمت بـه كل حى بالمنايـا مرتهـن
يا بن هند إن تذق كأس الردى تلك فى الدهـر كشىء لم يكن

ورُوى أنه وفد عبد الله بن عباس على معاوية .

قال : فو الله إنى لفى المسجد إذ كبر معاوية فى الخضراء ، فكبر أهل الخضراء ، ثم كبر أهل المسجد بتكبير أهل الخضراء ، فخرجت فاختة بنت قرظة بن عمرو بن نوفل من خوخة لها فقالت : سرك الله يا أمير المؤمنين ، ما هذا الذى بلغك فسررت له ؟

قال : موت الحسن بن على .

فقالت : إنا لله وإنا إليه راجعون .

ثم بكت وقالت : مات ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال معاوية : نعما والله ما فعلت ، إنه كان كذلك أهلا لأن يبكى عليه.

ثم بلغ الخبر ابن عباس رضى الله عنهما فدخل على معاوية .

فقال معاوية : علمت يا ابن عباس أن الحسن قد توفى .

قال : أَلذلك كبرت ؟ قال : نعم .

قال ابن عباس : والله ما موته بالذى يؤخر أجلك ولا حفرته بسادة حفرتك ولئن أُصبنا به فقد أُصبنا بسيد الأوصياء فجبر الله تلك المصيبة ورفع تلك العبرة .

فقال : ويحك يا بن عباس ما كلمتك إلا وجدتك معدًّا .

ولما أتى نعى الإمام إلى البصرة وذلك فى إمارة زياد بن سمية بكى الناس فسمع الضجة أبو بكرة أخو زياد وكان مريضاً : فقال ما هذا ؟ فقالت له زوجته : مات الحسن بن على وأظهرت الشماتة فى موته ، فقال لها : اسكتى ويحك فقد أراحه الله من شر كثير وفقد الناس بموته خيرًا كثيرًا يرحم الله حسنًا .

وكانت وفاته رضى الله عنه بالمدينة فى يوم الخميس لليلتين بقيتا من صفر سنة خمسين من الهجرة .

ونختم هذا الفصل بما قاله أبو الشهداء الإمام الحسين رضى الله عنه مرثياً الإمام على قبره :

« رحمك الله أبا محمد ، إن كنت لتناصر الحق مظانه وتؤثر الله عند التداحض فى مواطن التقية بحسن الروية وتستشف جليل معاظم الدنيا بعين لها حاقرة وتفيض عليها يداً طاهرة الأطراف نقية الأسرة وتردع بادرة غرت أعداءك بأيسر المؤنة عليك ، ولا غرو فأنت ابن سلالة النبوة ورضيع لبان الحكمة فإلى

روح وريحان وجنة نعيم أعظم الله لنا ولكم الأجر عليه ووهب لنا ولكم حسن الأسى عنه » .

ثم جلس على القبر وأنشد :

أأدهن رأسى أم تطيب محاسنى ... وخـــدك معفور وأنت سليب
أأشرب ماء المزن مـــن غير مائه ... وقد ضمن الأحشاء منك لهيب
أو استمتع الدنيـــا لشىء أحبـــه ... إلى كل ما أدنى إليك حبيب
سأبكيك ما ناحت حمامة أيكـة ... وما اخضر فى دوح الحجاز قضيب
غريب وأكناف الحجاز تحوطـــه ... ألا كل من تحت التراب غريب
فلا يفرح الباقى ببعد الذى مضى ... فكل فتى للموت فيـــه نصيب
وليس حرياً من أصيب بمالـــه ... ولكن من وارى أخاه حريب
بكائى طويل والدمـــوع غزيـــرة ... وأنت بعيـــد والمزار قريب
نسيبك من أمسى يناجيك طيفـــه ... وليس لمن تحت التراب نسيب

وقال ابن قتيبة :

« ولم يلبث معاوية بعد وفاة الحسن إلا يسيراً حتى بايع ليزيد بالشام وكتب ببيعته إلى الآفاق » .

وقال ابن الأثير « وكان ابتداء ذلك وأوله من المغيرة بن شعبة فإن معاوية أراد أن يعزله عن الكوفة ويستعمل عوضه سعيد بن العاص فبلغه ذلك ، فقال : الرأى أن أشخص إلى معاوية فأستعفيه ليظهر للناس كراهتى للولاية ، فسار إلى معاوية وقال لأصحابه حين وصل إليه : إن لم أكسبكم الآن ولاية وإمارة لا أفعل

ذلك أبداً ، ومضى حتى دخل على يزيد ، وقال له : إنه ذهب أعيان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وكبراء قريش وذود أسنانهم وإنما بقى أبناؤهم وأنت من أفضلهم وأحسنهم رأياً وأعلمهم بالسنة ، والسياسة ، ولا أدرى ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة قال : أوترى ذلك يتم ، قال : نعم .

فدخل على أبيه وأخبره بما قال المغيرة ، فأحضر المغيرة وقال له : ما يقول يزيد ، فقال : يا أمير المؤمنين قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان وفى يزيد خلف فاعقد له فإن حدث بك حادث كان كهفاً للناس وخلفاً منك ولا تسفك دماء ، ولا تكون فتنة ، قال : ومن لى بهذا ؟ قال : أكفيك أهل الكوفة ويكفيك زياد أهل البصرة وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك قال : فارجع إلى عملك وتحدث مع من تثق إليه فى ذلك وترى ونرى .

فودعه ورجع إلى أصحابه فبادروه بالسؤال عن مصيره فأجابهم :

« لقد وضعت رجل معاوية فى غرز بعيد الغاية على أمة محمد صلى الله عليه وسلم وفتقت عليهم فتقاً لا يرتق أبداً » .

وسار المغيرة حتى انتهى إلى الكوفة ففاوض بمهمته جماعة ممن عرفهم بالولاء والإخلاص للبيت الأموى فأجابوه إلى ما أراد ، فأوفد منهم عشرة إلى معاوية بعد أن أرشاهم بثلاثين ألف درهم وجعل عليهم عميداً ولده موسى ، فلما انتهوا إلى معاوية جندوا له الأمر ودعوه إلى إنجازه فشكرهم معاوية وأوصاهم بكتمان الأمر ثم التفت إلى ابن المغيرة ، وقال له : « بكم اشترى أبوك من هؤلاء دينهم ؟ » .

فقال : بثلاثين ألف درهم .

فضحك معاوية وقال : « لقد هان عليهم دينهم ! »[١] .

وتواطأ معاوية مع رؤساء الوفود المناصحين له أن يخطبوا ويذكروا فضل يزيد ، فلما اجتمعت عند معاوية وفود الأمصار وفيهم الأحنف بن قيس ، دعا معاوية الضحاك بن قيس الفهرى ، فقال له : إذا جلست على المنبر وفرغت من بعض موعظتى وكلامى فاستأذن للقيام فإذا أذنت لك ، فاحمد الله تعالى واذكر يزيد وقل فيه الذى يحق له من حسن الثناء عليه ، ثم ادعنى إلى توليته ، ثم دعا عبد الرحمن بن عثمان الثقفى وعبيد الله بن مسعدة الفزارى وثور بن معن السلمى وعبد الله بن عصام الأشعرى فأمرهم أن يقوموا إذا فرغ الضحاك وأن يصدقوا قوله ، فقام هؤلاء النفر خطباء يشيدون بيزيد إلى أن قام الأحنف بن قيس ، ولم يكن من الممثلين الذين رتبهم معاوية لهذه الرواية ، فقال : « أصلح الله الأمير إن الناس قد أمسوا فى منكر زمان قد سلف ومعروف زمان مؤتنف ، وقد حلبت الدهور وجربت الأمور فاعرف من تسند إليه الأمر بعدك ثم اعصِ من يأمرك ، ولا يغررك من يشير عليك ولا ينظر إليك ، مع أن أهل الحجاز وأهل العراق لا يرضون بهذا ولا يبايعون ليزيد ما دام الحسن حيًّا ، ثم أردف قائلا « وقد علمت يا معاوية أنك لم تفتح العراق عنوة ولم تظهر عليها قعصاً ولكنك أعطيت الحسن بن على من عهود الله ما قد علمت ليكون له الأمر من بعدك ، فإن تف فأنت أهل الوفاء وإن تغدر تظلم ، والله إن وراء الحسن خيولا جياداً

---

(١) تاريخ الطبرى ، والكامل لابن الأثير .

وأذرعا شداداً وسيوفاً حداداً ، وإن تدن له شبراً من غدر تجد وراءه باعاً من نصر ، وإنك تعلم أن أهل العراق ما أحبوك منذ أبغضوك ولا أبغضوا علياً وحسناً منذ أحبوهما وما نزل عليهم فى ذلك غيرٌ من السماء ، وإن السيوف التى شهروها عليك مع على يوم صفين لعلى عواتقهم والقلوب التى أبغضوك بها لبين جوانحهم » .

ولما رأى الأحنف تصميم معاوية على فرض ابنه خليفة للمسلمين انبرى إليه قائلا : « يا أمير المؤمنين ، أنت أعلمنا بليله ونهاره وبسره وعلانيته ، فإن كنت تعلم أنه خير لك فوله واستخلفه ، وإن كنت تعلم أنه شر لك فلا تزوده الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة ، فإنه ليس لك من الآخرة إلا ما طاب ، واعلم أنه لا حجة لك عند الله إن قدمت يزيد على الحسن والحسين وأنت تعلم من هما وإلى ما هما وإنما علينا أن نقول سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير »[1]

ومن هذا نتبين أن معاوية حاول البيعة لابنه يزيد فى حياة الحسن بن على وإن كان آخرون يقولون بأن بيعة يزيد إنما وقعت بعد وفاة الحسن حتى قال أبو الفرج : « إنه سم الحسن وسعد بن أبى وقاص تمهيداً لبيعة ابنه يزيد » .

ومعنى هذا أنه قد كان لمعاوية محاولتان :

إحداهما : فى حياة الحسن برغم ما تعهد به وهى إنما فشلت لمكان وجود صاحب العهد حياً .

والثانية بعد وفاة الحسن عليه السلام وهى التى تمت بأساليبها الظالمة التى

---

(١) الإمامة والسياسة .

عرضها أكثر المؤرخين ، فعزل مروان عن المدينة حين عجز عن أخذ البيعة على أهلها ليزيد وولى المدينة سعيد بن العاص فأظهر الغلظة وأخذهم بالعزم والشدة ولم يحبه أحد من بنى هاشم ، وذهب مروان إلى المدينة غاضباً وكتب معاوية إلى عبد الله بن عباس وإلى عبد الله بن الزبير ، وإلى عبد الله بن جعفر وإلى الحسين بن على يدعوهم إلى البيعة ليزيد وكان مما قاله للإمام الحسين رضى الله عنه : « أما بعد فقد انتهت إلىَّ منك أمور ، لم أكن أظنك بها ، رغبة بك عنها ، وإن أحق الناس بالوفاء من كان مثلك فى خطرك وشرفك ومنزلتك التى أنزلك الله بها ، فلا تنازع إلى قطيعتك واتق الله ولا تردنَّ هذه الأمة فتنة ، وانظر لنفسك ودينك وأمة محمد ، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون » .

فكتب إليه الحسين رضى الله عنه كتاباً جاء فيه « أما بعد فقد جاءنى كتابك ، تذكر فيه أنها انتهت إليك منى أمور لم تكن تظننى بها رغبةً بى عنها وأن الحسنات لا يهدى لها ولا يسدد عليها إلا الله تعالى ، وأما ما ذكرت أنه رقى إليك عنى فإنما رقاه الملاّقون المشّاءون بالنميمة المفرقون بين الجمع ، وكذب الغاوون المارقون ، ما أردت حرباً ولا خلافاً » . . . إلى أن قال : « وقلت فيما قلت : لا ترد هذه الأمة فى فتنة ، وإنى لا أعلم فتنة لها أعظم من إمارتك عليها . . إلخ » .

وقدم معاوية بعد ذلك إلى المدينة وبعد ذلك إلى مكة ، ويقول ابن الأثير : « وسبقه الحسين بن على وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبى بكر وابن عمر

إليها ، ولما كان آخر أيامه بمكة أحضر هؤلاء وقال لهم : إنى أحببت أن أتقدم إليكم أنه قد أعذر من أنذر ، إنى كنت أخطب فيكم فيقوم إلىّ القائم منكم فيكذبنى على رءوس الناس فأحمل ذلك وأصفح ، وإنى قائم بمقالة فأقسم بالله لئن ردّ علىَّ أحدكم كلمة فى مقامى هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه ، فلا يبقينَّ رجل إلا على نفسه ، ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم فقال : أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ، ومع كل واحد سيف ، فإن ذهب رجل منهم يردّ علىَّ كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفهما . ثم خرج وخرجوا معه ، حتى أتى المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبتز أمر دونهم ، ولا يقضى إلا عن مشورتهم ، وإنهم قد رضوا وبايعوا يزيد فبايعوا على اسم الله ، فبايع الناس » .

وهكذا ولدت بيعة يزيد بالسيوف المشهورة على رءوس الناس ، وهل هذه هى خلافة المسلمين ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه البخارى فى صحيحه عنه عليه الصلاة والسلام : « ما من وال يلى رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم إلا حرم الله عليه الجنة » . وحين قال صلى الله عليه وسلم : « الخلافة بعدى ثلاثون ثم تصير ملكاً عضوداً » . وقد كملت الثلاثون سنة بخلافة الإمام الحسن عليه السلام ، ثم صارت ملكاً عضوداً .

وأختتم هذا الفصل بما قاله الشاعر الموهوب سليمان بن قتة فى رثاء الإمام الحسن :

يا كذب الله من نعى حسناً ... ليس لتكذيب نعيه ثمن
كنت خليلي وكنت خالصتي ... لكل حي من أهله سكن
-أجول في الدار لا أراك وفي ... الدار أناس جوارهم غبن
بدلتهم منك ليت أنهم ... أضحوا وبيني وبينهم عدن

وكذلك رثاه الشاعر قيس بن عمر بأبيات ذكر فيها جريمة بنت الأشعث ، وذكر فضل الإمام وجوده :

جعدة ابكيه ولا تسأمي ... بعد بكاء المعول الثاكل
لم يسبل الستر على مثله ... في الأرض من حاف ومن ناعل
كان إذا شبت له ناره ... يرفعها بالسند القاتل
كما يراها بائس مرمل ... وفرد قدم ليس بالآهل
يغلي بنيء اللحم حتى إذا ... أنضجه لم يغل من آكل
أعني الذي أسلمنا هلكه ... للزمن المستخرج الماحل

المراجع

١ – القرآن الكريم

٢ تفسير محمد بن على بن محمد الشوكانى

٣ – سيرة النبى : عبد الملك بن هشام

٤ – أعيان الشيعة : السيد محسن الأمين

٥ – الإمام الحسن : الأستاذ باقر شريف القرشى

٦ – صلح الحسن : الشيخ راضى آل ياسين

٧ – الفتنة الكبرى : المغفور له الدكتور طه حسين

٨ – نور الأبصار فى مناقب آل بيت النبى المختار
الشيخ سيد الشبلنجى

٩ – مقاتل الطالبيين : أبو الفرج الأصفهانى

١٠ – حلية الأولياء : أبو نعيم الأصفهانى

١١ – الإمام الحسن : الأستاذ حسن كامل الملطاوى

١٢ – الإجماع فى التشريع الإسلامى : السيد محمد صادق الصدر

١٣ – نظرية الإمامة : الدكتور أحمد صبحى

١٤ – حياة أمير المؤمنين فى عهد النبى : محمد صادق الصدر

١٥ – ذخائر العقبى : محيى الدين الطبرى

١٦ – شرح نهج البلاغة : ابن أبى الحديد

١٧ – طبقات ابن سعد : ابن سعد
١٨ – فاطمة وبنات محمد : لامنس
١٩ – كشف الغمة : عبد الوهاب الشعرانى
٢٠ – الحسن والحسين : الأستاذ محمد رضا
٢١ – الحقائق الخفية عن الشيعة الفاطمية والإثنى عشرية
للأستاذ محمد حسن الأعظمى
٢٢ – الحسن بن على : للأستاذ كامل سليمان
٢٣ – الرياض النضرة : محب الدين الطبرى
٢٤ – البداية والنهاية : ابن كثير
٢٥ – الكامل : ابن كثير
٢٦ – الإصابة فى تمييز الصحابة : لا بن حجر
٢٧ – تاريخ الخلفاء للسيوطى
٢٨ – تاريخ الأمم الإسلامية : للشيخ الخضرى
٢٩ – الرسول فى القرآن الكريم : الأستاذ حسن كامل الملطاوى
٣٠ – فضائل الرسول صلى الله عليه : للأستاذ حسون الدلفى
فى المعقول والمنقول
٣١ – الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم وأهل بيته الأطهار
للأستاذ حسون الدلفى
٣٢ – فضائل الخمسة من الصحاح الستة : للأستاذ السيد مرتضى الحسينى